المنسوجات ذات الزخارف المطبوعة عبر العصور الإسلامية

أ.د. عبد العزيز حميد صالح
كلية الآداب – جامعة بغداد

د. عائدة حسين احمد
معهد الفنون التطبيقية

الطباعة في اللغة تعني الختم والتأثير في الطين او نحـــوه[١] . ويضيـف الزبيدي إلى ذلك بأن الطبع هو تصوير الشيء بصورة ما وهو أعم مـــن الختـم واخص من النقش ، والذي يعني ايضا تأثر الشيء بنقش الخاتم[٢] . وهنـاك مـن يرى ان للطباعة مفهومان عام وخاص . المفهوم العام يعني اثر لمؤثر ينقل مـــن سطح لسطح آخر ، والمفهوم الخاص هو ما يحول الحروف والاشكال والرســـوم من سطح الى آخر لأنتاج شيء جديد[٣] . أما ما يتعلق بالطبع على القماش فيعنـي التلوين الموضعي في حدود الزخرفة او الرسم[٤] . ويرى آخـــر انـــها صباغـة موضعية لمساحات معينة تشكل فيما بينها تصميمات ورسوم مختلفة اما بأســتخدام لون واحد او مجموعة الوان[٥] . وفي معجم مصطلحات الصناعة النسيجية انـــها النقوش السطحية او زخرفة سطوح الاقمشة بأستخدام صبغات ثابتة ، أي بـــألوان غير قابلة للذوبان في الماء في تكوينات تتكرر بانتظام وثبات[٦] . وفـــي العصـــر العباسي اورد اللغويون العرب مفردات مختلفة في هذا المعنى ، أي بالنسبة الـــى صباغة الملابس وتلوينها او الزخرفة أو ربما حتى الطباعة عليها ، كذلك الألـوان او الصبغات المستخدمة آنذاك في تلوين المنسوجات . فثوب (نميـــق) و (منمـــق) يعني الثوب المنقوش . وثوب (مبرقش) أي ثوب منقوش ومزخرف . و (الكذابـة) من الثياب هي الملابس المنقوشة بالالوان والزخرفة حتى لتبدو للناظر وكأنها ثياب موشاة أي مطرزة[٧] . أما بالنسبة الى الأصباغ المستخدمة في زخرفة الملابـــس فكانت تعرف في العصر العباسي بأسم (السمان)[٨] ، كذلك الصبغ والصباغ[٩] .

ومن البديهي ان المنسوجات التي تهيأ للطباعة لابد وان تكون نظيفة تمامـا وغفل من الشوائب والتشويهات اللونية بأي شكل من الأشكال سواء ما كان منـــها

على شكل عقد داكنة أو بقع أو الألوان الجانبية غير المرغـــوب فـــي وجودهـــا والحاصلة اثناء الغزل أو النسيج ، أو أن يكون ذلك نتيجة للون القطن أو الكتـــان الطبيعيين . فلابد وأن تعالج هذه المنسوجات بالمواد الكيمياوية اللازمة لقصر مثل تلك الألوان والبقع وأزالتها . ولاشك أن هذه العملية قد مارسها الطباعون القدمـــاء ولو أنها كانت تتسم بأساليب وطرق مغايرة للاساليب والطرق المتبعـــة اليـــوم . فيذكر لنا الجغرافي والمؤرخ الروماني بليني على ســـبيل المثـــال ان النســـاجين اليونان والرومان كانوا يستعينون في تنقية لون المنسوجات الصوفيـــة بعصـــارة أوراق او ازهار شجرة معينة (Radicula) أو بمادة قلوية أخرى تعـــرف بـــ (Saponaria) وهي ذات رغوة صابونية معروفة ، أو أي مادة قلوية[١٠] .

وعن الطريقة القديمة التي كانت تطبع فيها الزخرفـــة علـــى الملابـــس او المنسوجات فكانت تتم بأستخدام قوالب خشبية محفور عليها الزخارف المطلـــوب تنفيذها . كان يقوم بها عادة شخص متخصص بصناعتـــها وبيعـــها أو بصنعـــها لحساب النساجين او المتخصصين بالطباعة على النسيج والذي كانت لهم حريـــة اختيار ما يريدون اختياره منها . ومهما يكن من أمر صناعتها فأنه بعد غطسها او تعريضها الى الصبغة المطلوبة تضغط على القماش باليد او في بعـــض الأحيـــان بالضرب عليها بواسطة مطرقة خشبية خفيفة[١١] . وبعد جفـــاف الألـــوان تثبـــت بالمواد المثبتة المعروفة قديما وأهمها (الشب) . ونحن نعلم أن (الشب) من المـــواد الرئيسة التي استعين بها في تثبيت الأصباغ على المنسوجات في بلاد الرافدين في العصور القديمة وبشكل خاص في العصر الآشوري حيث استخدم علـــى نطـــاق واسع في تثبيت الألوان والصبغات على الخيوط الداخلة في صناعة النسيج بشـــكل عام[١٢] . هذا ولا تزال الطباعة اليدوية على المنسوجات تتم على أيـــدي صنـــاع مهرة في العديد من مدن بلاد المشرق التراثية مثـــل بغـــداد وكربـــلاء والنجـــف والقاهرة وغيرها من المدن العريقة في تلك الصناعة .

وعلى الرغم من أنه من الصعوبة بمكان تحديد الوقت أو الحقبة الزمنية الدقيقة التي عمد فيها الإنسان الى فن الطباعة على المنسوجات والملابس بالألوان والزخرفة فأن هناك محاولات عديدة تتبع فيها المختصون الخطوات الأولى في هذه الصناعة[١٣] . فيرى البعض من المختصين اليوم أن الطباعة على النسيج قد بدأت في عصور واغلة في القدم ، وأنها ظهرت اولا عند القبائل الرحل التي كانت تجوب بلاد الفوقاس حوالي نهاية الالف الثالث قبل الميلاد[١٤] . ونحن لا نعلم السبب الذي حمل هؤلاء المختصين على تبني هذه النظرية ، غير أنه من المؤكد ان المؤرخ اليوناني هيرودتس Herodotus قد وصف لنا ملابس مزينة برسوم الحيوانات المثبتة بالألوان تخص افراد القبائل القوقازية في حوالي سنة ٤٥٠ قبل الميلاد[١٥] .

ومن المختصين من يعتقد ان العناية او الأهتمام بالملابس قد صاحب نشوء الحضارات الكبرى الاولى في العالم وان الموطن الأصلي لها كان على الأغلب بلاد الرافدين حيث كشفت الحفائر الأثرية في مواقع مدن مندرسة عديدة هنا عن أختام حجرية مزخرفة ربما أستخدم قسم منها في تزيين الملابس والتي يرجع بعضها الى ما قبل ٥٠٠٠ سنة على الأقل وهي أما أختام اسطوانية الشكل او منبسطة لها مقابض من جهتها الخلفية يستدل منها أنه كانت لها استعمالات متنوعة منها الطباعة على المنسوجات او الملابس[١٦] .

وكشفت حفائر بعثة التنقيب اليابانية في الكهوف الواقعة في تلول (الطار) عند الحافة الشرقية لبادية الشام الى الغرب من مدينة كربلاء عن حوالي الف وخمسمائة قطعة نسيج أغلبها في حالة سيئة جدا من الحفظ ترتقي الى الحقبة الزمنية المحصورة بين القرن الثاني قبل الميلاد والقرن الثاني الميلادي ، وجد من بينها بعض قطع النسيج التي يبدو أن زخرفتها قد تمت عن طريق التلوين الحر بسبب وجود أماكن على سطح النسيج تبدو عليها آثار الشمع والتي لابد وأن تكون من ضمن المساحات الواقعة بين الزخرفة ، أي الحفاظ على الخلفيات نظيفة خالية

من الأصباغ[١٧] . وعلى الرغم من ان الزخرفة بهذه الطريقة لا تعتبر طباعة على المنسوجات غير أن الدراية بهذه التقنية في الزخرفة قد تعني ان النساجين العراقيين أبان تلك الحقبة الزمنية كانوا يمارسون عمل الطباعة أيضاً . كما أنه ليس من المستبعد ان تكون من بين مئات قطع المنسوجات المكتشفة في حفائر تلول (الطار) نماذج مطبوعة غير أن تلفها الشديد والحالة السيئة التي هي عليها بسبب التفاوت الشديد في درجات الحرارة والرطوبة العالية نتيجة للدفن في أرض موحلة غير صالحة لحفظ المواد العضوية السريعة التلف لا يجعل في الأمكان البت في الطريقة التي أتبعت في زخرفة الكثير منها .

ويعتقد بعض المختصين ان شبه القارة الهندية هي الموطن الأول لهذه الصناعة ، وربما ان السكان هناك قد مارسوا الطبع على الملابس منذ حقب زمنية ربما ترتقي الى أواخر الألف الرابع قبل الميلاد دون ان يسوقوا على ذلك أي دليل اللهم بأستثناء الاشارة الى ان بعض الرسوم الآدمية التي تزين الجدر الصخرية لعدد من الكهوف هناك[١٨] . ومهما يكن من أمر قدم تلك الصناعة في الهند فهناك من الدلائل التاريخية ما يتبين لنا منها ان الهنود قد مارسوا الطبع على النسيج منذ عصور مبكرة نسبيا . ففي سنة ٣٢٧ قبل الميلاد عندما غزا الاسكندر المقدوني بلاد الهند اطنب المؤرخون والجغرافيون اليونان الذين صاحبوا تلك الحملة العسكرية في وصف المنسوجات الهندية من هذا الصنف وصفاً مسهباً .

وتشير المدونات التاريخية ايضا الى أن هذا الضرب من المنسوجات كان يصدر الى بلاد الصين منذ القرن الرابع قبل الميلاد على الأقل حيث لاقت هناك استحسانا ورواجا كبيرين حتى ان عمد عدد لا يستهان به من النساجين الصينيين على تقليدها .

ولم يتوقف الهنود على تصدير منسوجاتهم ذات الزخارف المطبوعة الى الصين وحدها بل أنهم عملوا على التجارة بها مع مختلف أصقاع العالم المتحضر قبل الميلاد وبعده . وقد أشار الى هذا الضرب من المنسوجات بوضوح تام

الجغرافي اليوناني سترابو Strabo المتوفي بسنة ٢٠ ميلادية[١٩] . وقد لعب التجار العرب دورا بارزا في نقل المنسوجات القطنية المطبوعة من الهند الى مختلف الأقاليم ومنها البلدان الأوربية عن طريق البحر الاحمر وذلك حتى القرن الثالث الميلادي على الأقل[٢٠] .

وظلت المنسوجات الهندية من هذا النوع تصدر الى مختلف الأصقاع عبر العصور الاسلامية[٢١] ، فقد كشفت الحفائر الاثرية في موقع الفسطاط في مصر مثلا عن العديد من قطع المنسوجات الهندية التي ينحصر زمنها بين القرنين السادس والتاسع الهجريين (١٢-١٥ م) (شكل ١) . وأستمرت هذه الصناعة مزدهرة في بلاد الهند حيث بلغت درجة عالية من الاتقان في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وفي متحف المتروبوليتان بنيويورك امثلة عديدة على قطع المنسوجات الهندية المطبوعة عبر العصور المختلفة . ويلاحظ انه قد استخدمت في الكثير منها الاختام الكبيرة والتي تغلب عليها التفريعات النباتية المحورة او رسوم الأشجار (شكل ٢)[٢٢] . منها قطعة كاملة من قماش القطن مستطيلة الشكل أشبه في زخرفتها بتصميم الطنافس يحيط بها اطار ملون من عدة أشرطة متفاوتة في العرض ، تشغلها تفريعات نباتية وهندسية متنوعة . أما مساحتها فتشغلها رسوم لأمراء هنود في وضعيات مختلفة . في أعلاها مشاهد صيد ، وفي الوسط مشهد شرب وفي الاسفل امير يجلس على كرسي مرتفع خلفه بعض افراد الحاشية وأمامه راقصة وعدد من الموسيقيين . أن هذه التحفة التي ترتقي الى القرن السابع عشر محفوظة هي الأخرى في متحف المتروبوليتان في نيويورك (شكل ٣)[٢٣] .

ومارس المصريون القدماء هذه الصناعة بكثرة منذ مطلع العصر المسيحي على الاقل . ولا غرور في ذلك فأن للمصريين باع طويل في صناعة النسيج وبشكل خاص المنسوجات الكتانية منذ العصر الفرعوني . وقد كشفت الحفائر الاثرية التي قام بها الآثاري الانجليزي روبرت فورر R.Forrer في العقد الأخير من القرن التاسع عشر عن قطع منسوجات كثيرة نفذت زخارفها الملونة بهذه

الطريقة يرتقي بعضها الى القرن الأول الميلادي[٢٤] . كما كشفت تلك الحفائر في مقبرة مدينة (اخميم) المندرسة الواقعة خرائبها في جنوب مصر عن قميص كامل من الكتان الأبيض لطفل صغير يرتقي الى القرن الرابع الميلادي مطبوعة عليه زخارف باللون الأزرق من قالب ذي شكل معيني منقوش عليه شكل أشبه بالزهرة من ذوات الأثني عشر فصا . وقد رتبت طبعات هذا القالب الى جانب بعضها ولم تترك بينها إلا حاشية ضيقة (شكل ٤) . كما كشفت الحفائر نفسها عن قالب خشبي صغير اسطواني الشكل يرتقي الى القرن الرابع الميلادي ارتفاعه خمسة سنتيمترات وقطره حوالي ٣,٥ سنتيمترا محفورة في كلا طرفيه زخرفة . في الطرف الأول نجمة سداسية ناتجة عن تداخل مثلثين في وسطها رسم طير محور ربما هو ديك ، وفي الطرف الثاني زخرفة هندسية بسيطة قوامها خطوط مستقيمة متقاطعة ودوائر متداخلة (شكل ٥)[٢٥] .

هذا ويميل المختصون الى أن أقدم قطعة نسيج ذات زخارف مطبوعة عثر عليها في أوربا وهي تلك التي وجدت داخل قبر القديس سيساريوس ST.Caesarius في فرنسا المتوفي سنة ٥٤٣ ميلادية هي من صناعة مصرية[٢٦].

وبالنسبة الى المنسوجات المطبوعة بلونين بدلا من لون واحد فأن أقدم ما عثر منها في مصر قطعة نسيج وجدت داخل قبر في جبانة مدينة (اخميم) ترتقي على الأغلب الى القرن الأول الهجري (٧ م) او قبل ذلك بقليل[٢٧] . ويلاحظ ان قوام الزخرفة على هذه القطعة النسيجية حاشية عريضة ملونة من عدد من الاشرطة يضم أعرضها صف من الأشكال الصليبية البسيطة . أما ما تبقى منها فتشغلها صفوف متجاورة من أشكال شبه معينية تزينها خطوط عريضة متقاطعة تشبه المربعات الصغيرة (شكل ٦) . ان اللونين اللذان استخدما في الطباعة هنا هما الأحمر والأسود .

وظلت الطباعة على المنسوجات عبر الحقب الاسلامية المتعاقبة نشطة ومتقدمة في مصر حيث تصدر منتوجاتها الى مختلف الأقاليم العربية والاسلامية وبخاصة في العصر الأموي وما تبع ذلك . ومما هو جدير بالذكر هنا انه تم اكتشاف قالب خشبي خاص بطباعة المنسوجات يرتقي الى القرن الأول او القرن الثاني الهجري (٧-٨ م) عثر عليه داخل قبر في جبانة موقع مدينة (اخميم) يدل على أن صاحب القبر كان حرفي من أرباب تلك الصناعة ومعتزا بحرفته مما حمل أهله الى وضع واحد من تلك القوالب الخشبية التي كان يستعين بها ذلك الحرفي في صناعته[٢٨] . ويلاحظ ان الزخرفة على هذا القالب عبارة عن طاووسين متقابلين بينهما رسم شجرة محورة عن شكلها الطبيعي (شكل ٧) .

ويعتبر العصر الفاطمي عصر أزدهار كبير بالنسبة الى المنسوجات المطبوعة في مصر . والواقع ان الحرفيين المصريين قد مالوا كثيرا الى صناعة المنسوجات المنقوشة والمطبوعة . ويذكر ان معظم الزخارف المنقوشة باتت اما مذهبة او مطبوعة باللونين الأحمر والبني . ليس هذا فقط بل أن بعض مصانع النسيج في مصر كانت تطرز شاراتها الخاصة على المنسوجات في هذا العصر[٢٩]. وحظي الأثاريون الأوربيون بقطعة نسيج جيدة من العصر الفاطمي ذات زخرفة مطبوعة عثر عليها في قبر القديس كوثبرت ST. Cuthbert المتوفي سنة ٤٩٨ هجرية (١١٠٤م) في مدينة درهام بأنكلترا محفوظة في المتحف البريطاني في لندن[٣٠] .

لقد كانت الصبغات المطبوعة في مصر في العصر الفاطمي غالبا ما تغطي جميع الثوب والتي لم تكن لتختلف في جوهرها عن سائر الزخارف المنسوجة والمطرزة عصرئذ[٣١] . وقد وصلت الينا قطعة نسيج مربعة فاطمية ترتقي الى القرن الرابع الهجري محفوظة في متحف المتروبوليتان بنيويورك قوام رسومها زخارف نباتية مطبوعة باللون الذهبي[٣٢] . كذلك يحتفظ نفس المتحف بقطعة من نسيج الكتان تزينها رسوم أسود مطبوعة باللونين البني والذهبي داخل مربعات

محددة متجاورة . وقد استخدم الحرفي في طبع قطعة النسيج هـذه سـتة أختـام مختلفة؛ اربعة منها لطبع اللون الاسود وواحد لطبع أرضية المربعات ذات اللـون البني ، وواحد لعمل الحبيبات او الورديدات التي تتكون منها المربعـات (شـكل ٨)[٣٣]. وبهذه المناسبة نشير الى ان متحف الفن الاسلامي في القاهرة يحتفظ بعدد ليس بالقليل من القوالب الخشبية الخاصة بالمنسوجات والذي يرتقي اغلبـها الـى العصر الفاطمي والقليل منها الى العصر المملوكي . وهو العصر الذي ظلت فيـه الأقمشة المطبوعة قيد الانتاج في مصر . وقد كانت رسومها السائدة في القرنيـن السابع والثامن الهجريين (١٣-١٤ م) تغلب عليها الأشكال المسـننة والوريـدات والتفريعات المزهرة ذات الألوان الأزرق أو الأحمر أو البني[٣٤] .

وفي إيران أزدهرت صناعة المنسوجات المطبوعة ازدهارا واضحا فـي القرنين السابع عشر والثامن عشر . ويرى المختصون ان هذا الازدهار كان يعني انحطاطا اقتصاديا عاما في البلاد بسبب الاحتلال الأفغاني لها حيث لم يكن بوسـع إيران انتاج قطع النسيج ذات الزخارف المنسوجة والمطـرزة والتـي ازدهـرت ازدهارا ملفتا للنظر في القرن السادس عشر ومـا قبـل ذلـك . وقـد عرفـت المنسوجات المطبوعة هناك باسم (قلمدار) والتي تعني في المعاجم اللغوية الإيرانية بالمنسوجات المزينة بالصور[٣٥] . وكانت اهم المراكز المنتجة لهذا الضرب مـن المنسوجات مدن اصفهان وهمدان ويزد ، وقد باتت في القرن الماضي مـن أهـم الصادرات الإيرانية الى الخارج بعد السجاد[٣٦] .

ولابد ان تكون صناعة هذا الضرب من المنسوجات مزدهرة في العـراق وبلاد الجزيرة عبر العصور الاسلامية المتعاقبة ، ولاشك ان ما ذكرتـه باحثـة حديثة من ان طريقة الطبع على المنسوجات كانت واحدة من أربعة طرق تتم بـها زخرفة النسيج في العراق في العصر العباسي صحيحا[٣٧] . غير أنـه لـم تـرد اشارات عند المختصين في المنسوجات او الفنون الاسلامية عامة الى وجود ايـة تحفة نسيج ذات زخارف مطبوعة محفوظة في المتاحف العالمية او المجموعـات

الخاصة يمكن أعتبارها من انتاج هذا الاقليم ، على الرغم من انه كانت للعـــراق شهرة عظيمة ودراية واسعة في انتاج المنسوجات الفاخرة ليس فقط في العصـــر الاسلامي بل حتى في العصر السابق للاسلام ، فقد عرفت عن مدينتي (النعمانيـة) و (الحيرة) مثلا انهما مركزين مهمين من مراكز صناعة النســـيج فـــي الشـــرق الأوسط قبيل الاسلام[٣٨] ، كذلك (الانبار) التي كانت لها شهرة واسعة في انتـــاج المنسوجات الصوفية الفاخرة ، حتى أن صالح اهلها الصحابي خالد بن الوليد قـائد الجيش العربي الإسلامي المحرر للعراق على أن يدفعوا ضمن جزيتهم شيئا ممـــا كانت تفيض بها مناسج مدينتهم[٣٩] . ومن مدن الجزيرة التي اشتهرت في صناعـة النسيج الموصل التي كان لها الفضل الكبير في تطوير صناعة المنسوجات قبيـــل الاسلام وعند ظهوره وبشكل خاص ما يتعلق منها بنسيج الحرير[٤٠] .

وأشتهرت العراق في العصر العباسي بالمنسوجات الفاخرة وبشكل خـــاص مدينة بغداد التي عرفت بمناسجها الكبرى وهي (دور الطراز) وبمئـــات المناســـج الصغيرة الموزعة على محلاتها المختلفة والتي أختصت كل واحدة منـــها تقريبـــا بضرب معين من ضروب المنسوجات . وأزدادت بغداد تقدما في هذه الصناعـــة في العصر العباسي الثاني الى الحد الذي حدا بـــالجغرافي ابراهيـــم بـــن محمـــد الاصطخري المتوفي بسنة ٣٤١ هجرية (٩٥٧م) أن يكتب لنا فيما معناه ان شهرة بغداد في المنسوجات قد بلغت في أيامه الحد الذي حمل العديد مـــن النســـاجين او اصحاب معامل النسيج في الاقاليم الأخرى ان يطرزوا اسم بغداد او مدينة الســـلام على ما كانوا ينتجونه وذلك على سبيل التقليد والتدليس[٤١] . وحرى بنا ان نشـــير الى ان أهم المحال التي اختصت بالنسيج الفاخر في بغداد محلة (العتابيـــة) التـــي أعتبرت في طول العالم الاسلامي وعرضه بنسج ضرب معين من الثيـــاب التـــي تدخل في نسجها خيوط الحرير والقطن والذي عرف حتى في أوربا بأسم العتـــابي Tappy[٤٢] .

ويبدو ان العراق ظل في طليعة الاقاليم العربية والاسلامية في صناعة المنسوجات الفاخرة وذلك حتى الأيام التي اجتاز فيها الرحالة الإيطالي الفينيسي ماركو بولو Marco Polo في رحلته الشهيرة الى بلاد الصين بين سنتي ٦٧٠-٦٧٤ هجرية (١٢٥٤-١٣٢٤ م) الذي أشار الى ازدهار نسيج صناعة الحرير والديباج في بغداد والموصل وذكر بأن النسيج القطني الموصلي الذي يعرف بالشاش كان يصدر الى الصين حيث كانوا يتخذون منه هناك ضربا من ضروب العمائم(٤٣) .

ولابد من الاشارة هنا الى انه قد وصلتنا العديد من قطع المنسوجات الفاخرة من صناعة العراق موزعة بين المتاحف العالمية والمجموعات الخاصة غير أنه ليس من بينها ، كما ذكرنا ، منسوجات عليها زخارف مطبوعة . وقد يعزى السبب في ذلك الى ان جل ما هو موجود منها اليوم قد تم الحصول عليه من خارج العراق ، حيث كان أغلبها محفوظ في الأديرة والكنائس المسيحية في اوربا وضمن أكفان القديسيين وذخائرهم المحفوظة في أمهات الكنائس والكاتدرائيات القديمة . ومن الواضح انها وصلت الى المدن الأوربية اما عن طريق التجارة او أنها صارت الى هناك عن طريق الرحالة او المتبرعين او أصحاب النذور وغيرهم .

أما عن السبب في عدم وجود قطع منسوجات مطبوعة بين ما وجد منها في أوربا ان ذلك الضرب من المنسوجات بشكل عام كان شعبيا رخيص الثمن نسبيا لا يمكن ان ترتقي الى مستوى المنسوجات الحريرية الموشاة او ذات الزخارف الملونة الداخلة في النسيج نفسه وليس عن طريق الطباعة او الرسم . وهكذا يمكن القول بأن المنسوجات ذات الزخارف المطبوعة لا تصلح للتجارة العالمية او حتى التفكير في الأحتفاظ بها وأدخارها ضمن ذخائر الكنائس الثمينة او تسجيلها ضمن مدخرات القصور الملكية أو قصور الأمراء وغير ذلك ، رغم ان المنسوجات المطبوعة كانت على الدوام الأرخص ثمنا ومن ثم فلابد وأن تكون

الأكثر انتاجا لتغطية حاجات المواطنين الملحة من الثياب ، وعلى ذلك فلابـــد ان كان انتاجها للأستهلاك المحلي بشكل عام .

والآن لماذا لم تكشف الحفائر الأثرية المنظمة في العراق وبلاد الجزيـــرة عن قطع نسيج ذات زخارف مطبوعة ؟ لاشك أن السبب في ذلك يعـــزى بشـــكل أساس الى طبيعة التربة الدافئة الرطبة لأرض العراق وبشكل خاص فـــي موســـم الشتاء والربيع التي لا تبقي على أية مادة مدفونة ذات طبيعة عضوية .

وقبل أن ننهي هذا البحث نرى لزاما ان نشير بأختصار الى أن هذا الفن لم يمارس في اوربا قبل أوائل العصور الوسطى على الرغم من أن المنسوجات ذات الزخارف المطبوعة كانت تصل الى الأقاليم الأوربية عن طريق التجارة منذ القرن السادس الميلادي على الأقل ، فقد سبق وذكرنا أن أقدم قطعة نسيج ذات زخـــارف مطبوعة عثر عليها في قبر القديس سيساريوس المتوفي سنة ٥٤٣ ميلاديـــة فـــي فرنسا .

ويبدو أن الأقبال على طباعة المنسوجات هناك كانت بسبب الرغبة الملحـــة في تقليد الملابس الموشاة وذات الزخارف المنسوجة التي كانت تصل الى أوربـــا من البلدان العربية أو الإسلامية عن طريق التجارة .

الهوامـــش :

(١) الجوهري، اسماعيل حماد ، الصحاح ، ١٢٥٣/٣ .

(٢) الزبيدي، محمد مرتضى ، تاج العروس ، ٤٣٩/٢١ .

(٣) رشوان، علي ، الطباعة بين المواصفات والجودة ، ص١١ .

(٤) حسين، مصطفى محمد ، والشال ، عبد الغني ، فن طباعة الاقمشة ، ص١١.

(٥) النجعاوي، احمد فؤاد ، طباعة الألياف الصناعية وخلطها ، ص١٣٥ .

(٦) مرعي، حسين ، معجم مصطلحات الصناعات النسيجية ، ص١٣٤ .

(٧) ابن سيد، علي بن اسماعيل، المخصص ، ٦٥/٤ .

(٨) نفس المصدر، ٩٦/٤ .

(٩) نفس المصدر، ٧٢/٤ .

(١٠) Storey, J. , Dyes and Fabrics, London , 1992 , P. 30 .

(١١) Ibid, P. 32

(١٢) الجادر، وليد، الصناعات والحرف اليدوية في العصر الآشوري المتوسط، ص١٦٠.

(١٣) منها ان الانسان البدائي قد عمد الى تزيين ملابسه بالاصباغ ليتميز هو وافراد قبيلته عن افراد القبائل الأخرى او عن سكان المستوطنات القريبة أو أية مجموعة بشرية ثانية لا تمت له او لأفراد قبيلته بصلة مباشرة . وهناك من يرى ان لباس البعض في المجتمعات البدائية قد اصطبغ بلون ما عن طريق الصدفة المحضة نتيجة لسقوطه في طين ملون او تعرضت ثيابه لأية صبغة صدفة فنالت اعجابه أو أعجاب وأستحسان الآخرين في مستوطنته فعمد البعض منهم الى تلوين ملابسه بصبغات مشابه او مغايرة . وليس من المستبعد انه او انهم قد استعانوا في ذلك بالأوراق النباتية او الازهار الملونة او حتى بالدم .
(Brown, W. , Textile Ornament , Ciba Review , Jan. 1941, PP. 1322-1326)

(١٤) Jonston, M.P., and Kaufman, G. , Design on Fabrics , London , 1967, P. 9.

(١٥) Robinson, S., A history of Printed Textiles, London, 1969, P.7.

(١٦) Jonston, M.P. , Op. Cit. , P. 9 .

(١٧) Fuji, I. , Al-Tar, Tokyo, 1976 , Vol. 1 , P. 126 .

(١٨) Johnston, and Kaufman, Op. Cit. , P. 10 .

(١٩) Ibid, P. 7 .

(٢٠) Ibid, P. 10 .

(٢١) حسن، زكي محمد ، فنون الاسلام ، ص ٣٩٦ .

(٢٢) ديماند ، موريس ، الفنون الاسلامية ، لوح ١٨٥ .

(٢٣) نفس المصدر ، ص ١٧٥ .

(٢٤) Robinston Op. Cit. , P. 7 .

(٢٥) Ibid, P. 4 .

(٢٦) Ibid, P. 11 .

(٢٧) Ibid, P. 10 .

(٢٨) Ibid, P. 65.

(٢٩) حسن، زكي محمد ، فنون الاسلام ، ص٣٥٨ .

(٣٠) Robinston, Op. Cit., P. 13 .

(٣١) حسن، زكي محمد ، المصدر السابق ، ص٣٥٨ .

(٣٢) ديماند ، موريس ، المصدر السابق، ص٢٥٦ .

(٣٣) المصدر السابق، ص٢٥٥ .

(٣٤) حسن، زكي محمد ، المصدر السابق ، ص ٣٥٨ .

(٣٥) التونجي، محمد ، المعجم الذهبي ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص٤٤٥ .

(٣٦) حسن ، زكي محمد ، الفنون الإيرانية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ٢٦٧ .

(٣٧) المختار ، فريال ، المنسوجات العراقية الاسلامية ، بغداد ، ١٩٧٦ ، ص٢١١ . والطرق الثلاث الاخرى التي تذكرها السيدة فريال المختار

هي: الوشي أي التطريز ثم التباستري وأخيرا الزخارف المنسوجة : أي الداخلة في خيوط النسيج الملونة وبشكل خاص خيوط اللحمة .

(٣٨) المصدر السابق ، ص ٤٦ .

(٣٩) البلاذري، احمد بن وضاح ، فتوح البلدان ، مصر ١٩٣٢ ، ص ٣٠١.

(٤٠) حميد، عبد العزيز، المنسوجات ، حضارة العراق ، بغداد ، ١٩٨٥، ٢٧٠/٩.

(٤١) الاصطرخي، ابراهيم بن محمد ، مسالك الممالك ، لايدن ١٩٢٧ ، ص٩٣.

(٤٢) وهي المحلة التي كانت تقع في بغداد الغربية . سميت بهذا الاسم نسبة الى الصحابي عتاب بن اسيد والذي يقال ان ذريته قد سكنت في هذا الحي فسميت بأسمه (ابن جبير ، احمد ، الرحلة ، ص٢٠٤ ، المختار ، فريال، المصدر السابق ، ص١٢٢) .

(٤٣) Macro Polo, The Travel of Macro Polo, London, 1958, P. 41 .

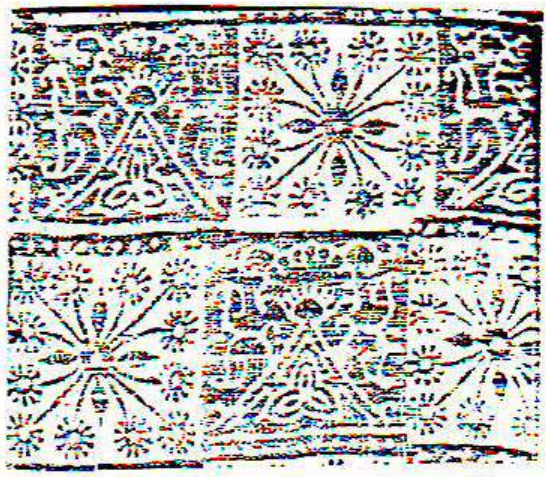

(شكل ١) : قطعة نسيج هندية وجدت في حفائر مدينة الفسطاط ترتقي الى القرن الثامن او التاسع الهجـــــــرى (١٤ ـ ١٥م) محفوظة في مخزن كوبر للمنسوجات بواشنطن .

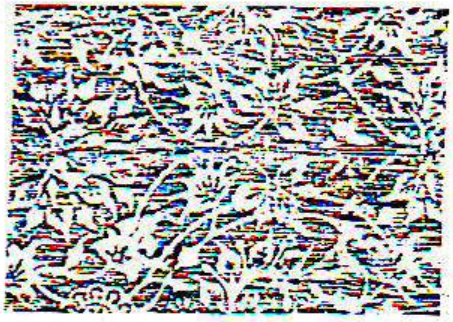

(شكل ٢) : قطعة نسيج هندية مطبوعة بختم كبير ترتقي الى القرن الخامس عشر الميلادي محفوظة في المتحف البريطاني .

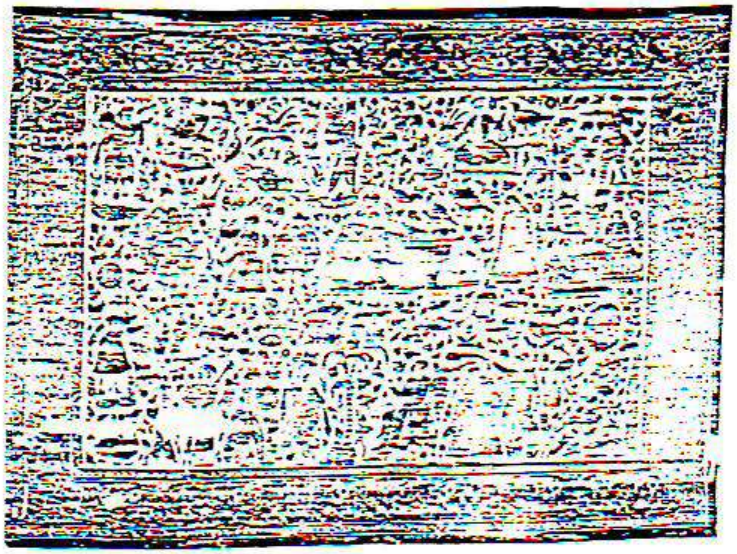

(شكل ٣) : قطعة نسيج ذات زخارف مطبوعة هندية ترتقي الى القرن السابع عشر الميلادي . محفوظة في متحف المتروبوليتان في نيويورك .

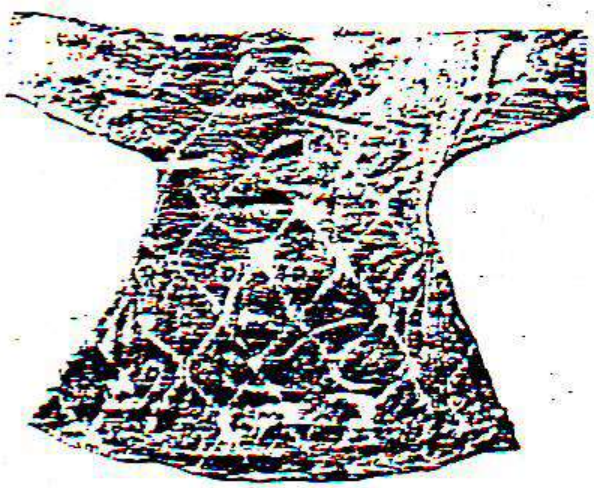

ـ ب ـ ـ أ ـ

(شكل ٤) : قميص من الكتان لطفل ذي زخارف مطبوعة عثر عليه في مصر يرتقي الى القرن الرابع الميلادي .

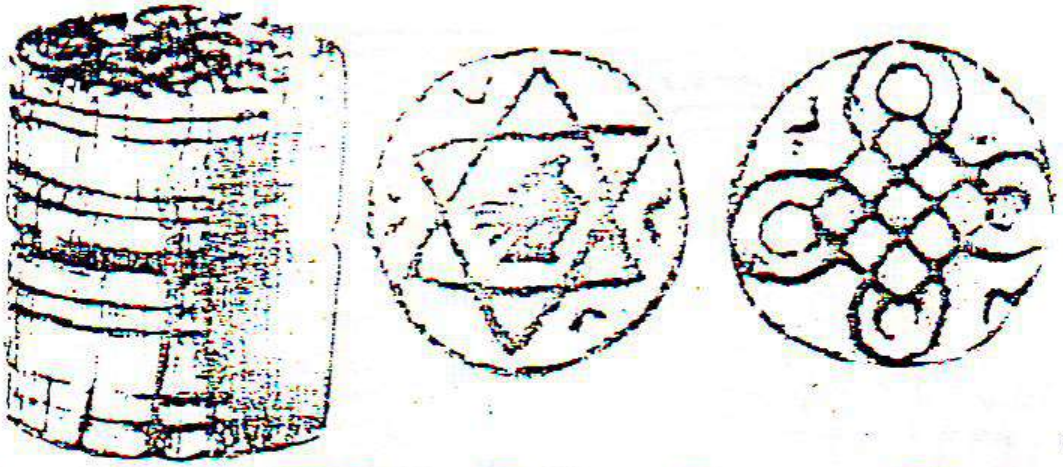

(شكل ٥) : قالب خشبي طباعي وجد في مصر . يرتقي الى القرن الرابع الميلادى .

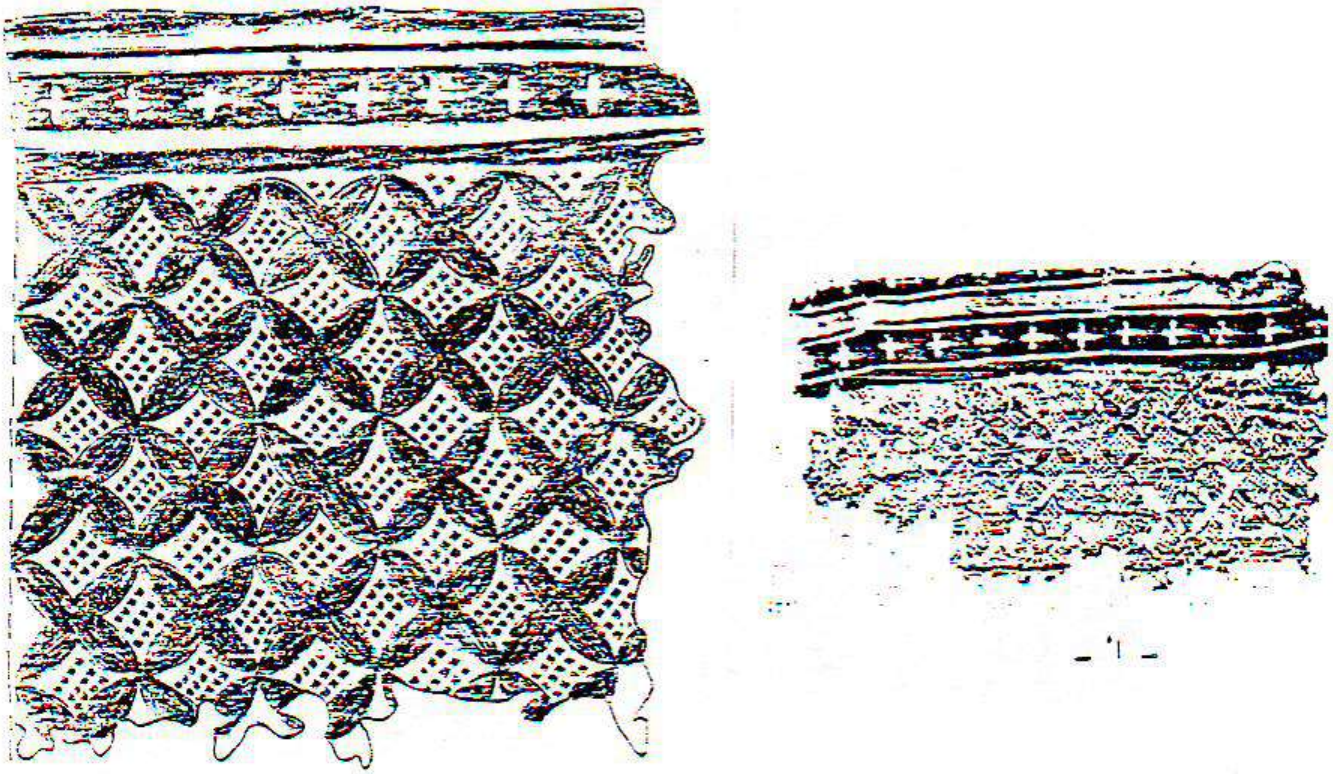

(شكل ٦) : قطعة نسيج من مصر ترتقي الى القرن الاول الهجري او قبل ذلك بقليل عثر عليها اثناء التنقيبات في موقع (اخميم)

(شكل ٧) : طبعة قالب خشبي طباعي وجد في تبر حرفي في اخميم يرتقي الى العصر الاموي .

(شكل ٨) : قطعة نسيج قاطنية ذات زخارف طبيعة على رسم أسد محور ترتقي الى القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي محفوظة في متحف أشمولين .

- أ -